

تفسير ابن كثير

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ
مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ جَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ

ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : (أمن خلق
السموات والأرض) أي : تلك السموات بارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب
النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة ، والأرض باستفالها وكثافتها ، وما جعل فيها من
الجبال والأوعار والسهول ، والفيافي والقفار ، والأشجار والزرع ، والثمار والبحور
والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك . وقوله : (وأنزل لكم من
السماء ماء) أي : جعله رزقا للعباد ، (فأنبتنا به حدائق) أي : بساتين (ذات بهجة) أي
: منظر حسن وشكل بهي ، (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) أي : لم تكونوا تقدرون
على إنبات شجرها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق ، المستقل بذلك المتفرد به ، دون
ما سواه من الأصنام والأنداد ، كما يعترف به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى في
الآية الأخرى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) [الزخرف : 87] ، (ولئن

سألهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) [العنكبوت :

63] أي : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه

غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد

بالخلق والرزق ؛ ولهذا قال : (إله مع الله) أي : إله مع الله يعبد . وقد تبين لكم ،

ولكل ذي لب مما يعرفون به أيضا أنه الخالق الرازق . ومن المفسرين من يقول : معنى قوله

: (إله مع الله) [أي : إله مع الله] فعل هذا . وهو يرجع إلى معنى الأول ؛ لأن

تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المتفرد به . فيقال : فكيف

تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير ؟ كما قال : (أفمن يخلق كمن

لا يخلق) [النحل : 17] . وقوله هاهنا : (أمن خلق السموات والأرض) : (أمن)

في هذه الآيات [كلها] تقديره : أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟

هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر ؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك ، وقد قال :

(الله خير أما يشركون) . ثم قال في آخر الآية : (بل هم قوم يعدلون) أي : يجعلون

الله عدلا ونظيرا . وهكذا قال تعالى : (أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر

الآخرة ويرجو رحمة ربه) [الزمر : 9] أي : أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا
قال : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) [الزمر :
9] ، (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر
الله أولئك في ضلال مبين) [الزمر : 22] وقال (أفمن هو قائم على كل نفس بما
كسبت) [الرعد : 33] أي : أمن هو شهيد على أفعال الخلق ، حركاتهم وسكناتهم ،
يعلم الغيب جليله وحقيقه ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي
عبدوها ؟ ولهذا قال : (وجعلوا الله شركاء قل سموهم) [الرعد : 33] ، وهكذا هذه
الآيات الكريمة كلها .